

سيكولوجية المحارب*

بقلم

جان كازنوف

الأستاذ المحاضر بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

ترجمة

مصطفى اسماعيل سويف

إذا صح أن الناس لا يتحاربون إلا لأنهم يشعرون بالحقد أو الحاجة إلى الصراع ، فإن الحرب تكون بلا ريب ظاهرة سيكولوجية . غير أنه قد بدأ ينضج أن الحروب لا سيما في النطاق العالمي تعبر الأشخاص ، حتى إن بعض علماء الاجتماع جعلوا يقررون أن أسبابها اقتصادية بحتة ، ولو أنها كانت من ناحية أخرى ذات طبيعة سياسية إذاً لأمكنها كذلك أن تفلت بتأثيرها من التفسير السيكلوجي ، ذلك أن الأمم ترى نفسها أحياناً متورطة في ضروب من الصراع جرتها عليها المعاهدات بطريقة آلية ، أو دفعها إليها موقعها الجغرافي فحسب ، أو بالأحرى تقارير الدبلوماسيين الذين لا يقيمون للمسؤولية وزناً ، أو القادة العسكريون وهؤلاء كذلك لا يرون الحرب إلا من خلال التقارير التي يرفعها إليهم مرسومهم . أي أنهم يرونها بشكل مجرد رياضي ، ليس فيه من الإنسانية شيء . ذلك أن الأفراد المنوط بهم ممارسة الصراع بما لهم من رغبات أو ميول ، ليس لهم في حساب هؤلاء وزن : إنما هم مجرد آلات منفذة ، وهكذا تبدو الحرب كأنما هي طوفان من فعل قوى الطبيعة ، فليس لعلم النفس أن يشغل نفسه بها إلا كما يشغل نفسه بزلزال أرضي أو بهبوط مفاجيء في البورصة . إنما ينبغي أن تحال دراسة الحرب إذاً إلى ميداني الاقتصاد والتاريخ .

* ترجمة المقال الفرنسي المنشور في هذا العدد .

ولا جدال في أن تطور الحروب حتى القرن الماضي قد يقوم على صدق هذه النظرات . أما في القرن العشرين فإنها تصبح ساذجة إذ هي بعيدة عن الظاهرة الجوهرية . لأن بعض صفات الصراع في هذا القرن تميل به إلى الاقتراب شيئاً فشيئاً من الحرب البدائية . والواقع أنه كلما بدا الصراع المسلح أبعد من حدود الإنسان فإنه يتردد إليه ، فرؤساء الدول أولاً يعتبرون مسئولين من الناحية الفقهية ، ومن ثم فهم مرتبطون بالمخاطرة ارتباطاً يفوق في قوته كل ارتباط سابق ، إنهم إذ يقبلون الحرب أو يرفضونها ، إنما يواجهون مغامرة شخصية . فلم تعد الحرب حرباً مترفة ، ومن جهة أخرى نلاحظ أن اطراد التقدم الآلى وازدياد أهمية الأسلحة لم يقلل من القيمة العسكرية للمحاربين ، فإن روح المحارب ما تزال عاملاً حاسماً في النصر . وليست هذه الروح مطلوبة من المحترفين فحسب بل إنها لتطلب من الأمة كلها . لا بد من « الثبات » ، ولن تجدى الأسلحة مهما اشتد مضارها إذا لم تكن لدى القوم إرادة النصر التي لا تغل . ولقد كانت الروح المعنوية للكتائب والمؤخرة في غمرة القنابل ووسط ضروب الحرمان الشغل الشاغل لواضعي الخطط في الحرب الأخيرة ، ومن ثم يتضح أن القوم عادوا إلى معرفة الطابع السيكلوجي للحرب ، كما يتضح أن أبناء الأمة المدفوعة للحرب يلزمهم أن يظهروا نفس الروح التي كان يظهرها المحاربون القدماء والبدائيون

فلإلام ترجع العناصر الجوهرية لهذه « الروح المعنوية » ؟ يجب على الإخصائيين أن يكونوا على بينة من ذلك ، ويكفي أن يشهدوا هذه الروح في ميدان العمل حتى ينجلي أمامهم الأمر تماماً . ومن ثم فقد رأينا هبات الدعاية وهي المنوط بها السهر على الروح المعنوية للأمة المدفوعة ، تتقدم بوضوح إلى غرس الأمل ورعاية الثقة بالنصر ، دون أن تنسى في نفس الوقت الشعور بأن هذا النصر سيكون أمره شاقاً ، وأنه لن يتحقق من تلقاء نفسه ، وإنما يجب الكفاح من أجله . يجب أن تكون الثقة هائلة بحيث تنحى كل تخاذل ، ولكن على ألا تغطي بحيث تجعل الجهاد عبثاً . يجب أن يدفع الأفراد إلى تقبل بعض المخاطر ، ويجب أن نبين لهم أن هذه المخاطر أمر لا بد منه ، وأنها لا بد مثمرة . على أن هذا لا يحمل في طياته سوى عرض من أغراض الدعاية الداخلية ، وهناك غرض آخر لا يقل عنه أهمية ، فلا يكفي أن يقبل الناس الفياض بالقتل ، وإنما ينبغي كذلك أن يرتضوه ، ينبغي لهم أن يعتبروا قتل الأعداء أمراً طيباً يستحق أن يعلق به الرجاء ، وبالتالي يلزمنا أن

نبين لم أن قضيتهم عادلة ، وأن العدو مجرم في نظر الأخلاق ، وهو لذلك جدير بالمقت ، وبعبارة أخرى نقول إن هناك عاملين سيكولوجيين جوهريين في توجيه الحرب الحديثة هما : تبجيل المخاطرة والتضحية ، وتبرير الأذى الذي تلحقه بالأعداء . وقد يعترض البعض قائلا إن هذه مجرد قوى محركة للدعاية ، وإنها ليست سوى وسائل مفتعلة لجعل القوم يقبلون الصراع ، وهذا في الحقيقة من طبيعة مختلفة كل الاختلاف . يقال إن البطولة والعدالة ليستا سوى قناعين ، ونحن نعرف ذلك بلا شك . فإن مذاق المخاطرة والثورة ضد الظلم ليسا بالضرورة هما الأسباب العميقة للصراع . ومن ثم فإنه يتحتم علينا تنمية هذه الحالات النفسية بعد إثارها ، حتى تصلح دعامة لمشروع يقوم على دوافع أخرى مختلفة تماماً ، إلا أن الأحداث كثرت وثبتت حول تنمية هذا الاتجاه حتى أصبحت متطرفة . فعلماء الاجتماع الذين نقضوا مذاهبهم برد الوقائع التاريخية إلى ظواهر اقتصادية مستبعدين جميع العوامل العاطفية فهم يميلون كل البعد عن الروح العلمية ، فإنه حتى ولو كانت الأرجاع النفسية مثارة بطريقة مفتعلة فهي قائمة على كل حال ، ولها أهميتها ، ولا بد من تفسيرها من خلال الإنسان نفسه ، وكل دعاية مآلها الفشل لو أن الإنسان لم يكن يحمل في نفسه الاستعداد الطبيعي لقبول المخاطرة ومعاملة بعض أشباهه على أنهم أعداء . ومعنى ذلك أن للحرب أسسها السيكولوجية حتماً ، مهما تكن أسبابها الخارجية ، ثم إنها في النهاية تبقى هي هي نفسها ، على الرغم من كل التغيرات التاريخية ، فهي إذا بدت مرتبطة بظروف مادية ، فذلك الارتباط عرضي . أكثر منه جوهري ، ولقد شن الناس في كل زمان وفي كل مكان حروباً . ومن ثم فلا بد أن يكون لهذه الظاهرة علها الذاتية الثابتة ، ما دامت الأسباب الموضوعية تبدو متغيرة وعابرة إلى حد بعيد ، وعلى ذلك نجد أن الفوائد المادية لا تقوم بدور كبير غالباً لدى الشعوب التي نواضعنا على تسميتها بالبدائية ، كذلك نجد أن الأرض تعتبر وفقاً على أصحابها فلا يخامر المنتصر أى خاطر بأن انتصاره يمكن أن يعطيه حق امتلاك أرض الغير ، إنما المهم في أغلب الأحيان أن ينتقم انتقاماً شخصياً ، فهو ينتقم لموت أبيه أو رداً على إساءة ساحر ، أما فيما يتعلق بمطاردي الروس ، فهم يتحاربون لينموا مجموعتهم المربعة ، وبذلك يكتسبون المحد في نظر قبيلتهم . إنها الحرب دائماً وفي كل مكان : ينبغي قتل الأعداء ومواجهة الموت ، والمشكلة التي تعرض للباحث السيكولوجي تظل هي نفسها دائماً :

لماذا يعرض الناس حياتهم للخطر وكيف يتسنى لهم ذلك ، وكيف يحكمون بأنه من الخير قتل الغير ، مع أن هؤلاء القوم أنفسهم في جميع المجتمعات يقومون من جهة أخرى بكل ما من شأنه أن يؤكد وجودهم ويلدعنون لقواعد أخلاقية واجتماعية بالغة الصرامة تحرم قتل الإنسان ؟

فأما أن ارتضاء المخاطرة عنصر هام في سيكولوجية المحارب ، فذلك أمر لا شك فيه ، ولكن أهم من ذلك العداوة نفسها ، لأن الخطر يمكن مجابهته في مواطن أخرى على أية حال ، فيمكن المخاطرة بالحياة لإنقاذ الغير ، كما أن البطولة قد تزدهر في ظل السلام . لكن الخاصية الأولى للحرب هي في مواجهة الخطر عن طريق موقف عدائي ضد مجتمع مضاد . ومن جهة أخرى يبدو أن الغاية القصوى للقائد المضحك ليست في تعريض جنده للموت بل على الضد من ذلك في حمايتهم والتقليل من مخاطراتهم وإلحاق أفدح الضرر بالأعداء ، ولذلك كانت للعداوة الأولوية من بين الترتعين الرئيسيتين اللتين تكشف عنهما الحرب ، وهي التي تضمن بعض صرامتها على الترة الأخرى تلك التي تستخف بالموت .

من الميسور علينا أن نتيين في الإنسان نوعاً من الغريزة الدفاعية تدفعه إلى النزال حالما يهاجم أو يهدد أمه : وأصول هذه الغريزة ماثلة حتى في الحيوان ، وكذلك يمكننا أن نرى الغريزة تمحى إلى أبعد من ذلك فتدفع الفرد إلى مهاجمة الغير لا لسبب ظاهر اللهم إلا لأنه يوجد في كل إنسان مصدر طبيعي للعداوة ضد أشباهه ، وعلى أية حال فإن محبة الإنسان للإنسان وغيروته التجمعية وأهليته للاجتماع وعواطفه الغيرية كل أولئك لا تكفى لتعليل سلوكه الاجتماعي لأن الإنسان من جهة أخرى ذئب بالنسبة للإنسان وهذا ما عرفه هوبز حق المعرفة ، ثم جاء هيجل فأوضح بطريقة أكثر فلسفية أن الاتجاه الرئيسي نحو الغير إنما هو علاقة السيد بالعبد ، وأخيراً جاء سارتر فأبان بجدل لطيف أن البغض والحب مصدران لسلوك كلاهما طبيعي كالآخر ، وأنها يسريان من علاقة وجودية « من أجل الآخر » (١) إلا أن الحرب تعرض مشكلة مختلفة بعض الشيء ، لأنها تحمل علاقة العداوة في النطاق الجمعي ، ولأنها تضمن عليها تبريراً خلقياً ، وكأن المجتمع ينكر نفسه ، فن الحل أن يميل في الحياة السوية إلى تبجيل ميولنا الاجتماعية والقضاء على

دوافعنا العدوانية أو فرض القيود عليها ، وفى داخل كل جماعة أيا كانت ، يسود هذا الأمر المطلق « إنك لن تقتل أبدا » ولكن فى حالة الحارب نجد المجتمع نفسه هو الذى يهيب بنا أن نقتل ويجعل من هذه الإهابة قانوناً خلقياً — وفى ذلك قلب للتقيم أوضحه باسكال بطريقة أخذاة مرة وذلك فى التأمل الدافع الضيت : « لآى شىء تقتلنى ؟ ثم ماذا ! أأست أنت الذى تقيم على الشاطىء الآخر من البحر ؟ أى صديقى لو أنك كنت تقيم على هذا الشاطىء إذا لأصبحت سفاكاً ولصار من الظلم والافتئات أن أقفلك على هذه الصورة ، أما وأنت تقيم على الشاطىء الآخر ، فأنا مقدم ، وهذا القتل عدل » (١)

ذلك هو التناقض الذى تتضمنه الحارب ، ومن اليسر علينا أن نتبين دائماً كيف أن المرء يترك نفسه لقيادة غريزة عدوانية ، وكيف أنه يتخلص بغير مشقة من هذا الطلاء الذى أضفته عليه المدنية ، وقد أوضح برجسون أن الطبيعة البشرية لن تتغير أبداً ، وأن البدائى إنما يكن فىنا تحت قشرة التربية وهو على استعداد دائماً لأن يسفر عن وجهه (٢) . أما فرويد الذى غنى بدراسة مشكلة الحارب بوجه خاص (٣) فقد بدأ بتعريف الاستعداد للحياة المدنية بوساطة الملكة التى يحملها الإنسان وتمكنه من تحويل ميوله الأنانية إلى ميول اجتماعية بتأثير عوامل شبقية ، وبالتالى فهو يقرر أن الفرد يقبل المدنية فى أغلب الأحيان بطريقة كلها نفاق ، ولا يجد مشقة فى الإبانة عن أن التفهقر صوب المستوى البدائى الغرزى ميسور دائماً . أما الشىء الذى ينبغى تفسيره ، الشىء الذى ليس له من الوضوح إلا حظ ضئيل ، فهو هذا التقديس ، هذه القيمة الخلقية التى يسبغها المجتمع نفسه على هذه الميول العدوانية فى الحارب ، فالغريزة التى اعتاد أن يقمعها تبدو الآن مقدسة فعلاً ، وهذا الفرد ذاته يحياها كأنما هى إحدى الفضائل ، فباستطاعته أن يقتل جاره ثم يقول مستعيراً عبارة باسكال « إننى أنا مقدم ، وهذا القتل عدل » .

يظهر أن مفتاح المشكلة يمكن الحصول عليه من تحليل لفكرة العدالة غاية فى الدقة والجمال قام به دى جريف (٤) فى دراسة لم تكن الحارب موضوعها .

Pascal: "Pensées et Opuscules", (ed. Brunschwigg-Pensées 293) (١)

Bergson: "Les Deux Sources de la Morale et de la Religion", (٢)

Alcan, Paris 1932, p. 166-167; 133; 169; 293-296

S. Freud: "Essais de Psychanalyse", 4ième partie. (٣)

E. de Greeff: "Les Instincts de Défense et de Sympathie," Ed. (٤)

P. U. F., Paris, 1947, p. 35-70.

وقد تقدم هذا الباحث البلجيكي المتخصص في علم الإجرام نحو مشكلة دقيقة ، قادته إليها اختباره التي ابتكرها ، فأنهى إلى هذه النتيجة الهامة ومؤداها أن فكرة العدل من نتائج غرائزنا القائمة على الدفاع والهجوم . فإذا اقتصرنا على معرفة العدل كما نعرفنا به هذه الغرائز ، فإننا نصنع من الغير شيئاً مجرداً ، بدون شخصية معينة ، فنحبله إلى مجرد ذات مسئولة ، « ونحكم عليه » ، بدلاً من أن نحاول تفهمه . ولما كانت آليات الإحالة هذه من نسج نزعاتنا العدوانية فإنها تنهى بنا إلى فكرة عن العدل لا أثر فيها للحب ، هذا إلى أنها تتيح لنا أن نلقى على الآخرين مسئولية يؤسنا وشقائنا . وليس في أعماق هذه الفكرة سوى الرجوع الأولى في مقابل الظلم الذي نشعر بوطأته علينا . ولن نجد مطالباً بالعدل أكثر إلحاحاً من مجرم خطير . وعلى الضد من ذلك ، إذا نحن تركنا أنفسنا نقفاد لإشارة غرائز التآلف فلن تقدم على إدخال أشباهنا في قوالب تتيح لنا أن نرى فيهم مجرمين ، ولن نتجه نحوهم إلا باتجاه الفهم والحب والإحسان . فلا يدهشنا إذا أننا إذا ما استبعدنا كل مودة نحو إحدى الجماعات أو الأمم ، جعلنا نشاهدها عبر غرائزنا الدفاعية فحسب ، أي بطريقة تجريدية آلية ، ثم مضينا نحكم عليها باسم هذه الفكرة عن العدالة التي هي التعبير ذاته عن العلاقات العدوانية . وليس في هذا الاتجاه أي مداورة : فإن فكرة العدل تبدو مناسكة كل الناسك ، عند ما نعامل الغير كأنما هو شيء وليس إنساناً . فلا يثير العجب منا إذا أن نجد الفريقين في أي حرب ، يعتقدان أنهما على حق .

وكذلك تستطيع الوظائف النفسية المنوط بها نسج فكرة العدل أن تقوم على خدمة الدعاية الحربية إذا هي لم تنجح نسج التماسي ولم تخلق لدى الفرد الشعور بالإجرام . وفي استطاعة الأشخاص أن يحملوا في بعض الحالات الشعور بإنكار كثير من قواعد الأخلاق ؛ لكنهم لن يحكموا على هذا الشعور بأنه منافع للعدل بل يظنون قائمين في حدود الغريزة التي تدبّر الغير ولا تدبّر الذات أبداً . عدم وجود التماسي فيما يتعلق بفكرة العدل أمر يرغب فيه المجتمع ويرتضيه . وعلى رأى دى جريف أن المجتمع يجد في ذلك ما يلائمه ؛ فهو يستغل الغرائز في حالتها الساذجة دون أن يأتى التأمل فيمزج بها بعض التشكك والتردد . إنما يريد المجتمع أن يثير في أبنائه جميعاً أرجاعاً متبائلة مستعينة على ذلك بوضع عمليات بسيطة وموجزة . وفي ذلك يقول دى جريف « إن الأرجاع الغريزية البحتة يمكن توجيهها بغير مشقة

نحو التعصب القوي أو نحو الحياة السوية الرفيعة .^(١) وعلى ذلك ينهى المؤلف من دراساته التجريبية إلى نتيجة مؤداها أن فكرة العدالة إذا لم يتناولها التسامى ، كان في الإمكان تسخيرها لخدمة أية قضية . فإذا ما وجهت إلى خدمة أغراض عادلة حقاً فليس لنا إلا أن نهنيء أنفسنا ، ومن الخير أن نستطيع الجماعة في يسر وبلا مشقة أن تبعث أعضائها جميعاً إلى الدفاع دون ما حاجة إلى إقناع كل فرد بتعليلات مستغضة . وإلى جانب هذه الفكرة الساذجة ، توجد عاطفة للعدل مختلفة كل الاختلاف ، تقوم على أساس بعض القيم الخلقية والدينية وهي أقرب إلى الحدود والإحسان منها إلى الثأر والانتقام . غير أن سيكولوجية المحارب لا تستطيع أن تقف عند هذه العاطفة ، ذلك أن الفكرة الغريزية العدوانية أيسر تناولاً وأكثر ملاءمة لأحوال المجتمع في الحرب ، فلا حاجة به إلى النفوذ في أعماق المشاعر ؛ بل الحاجة كل الحاجة إلى هذه الأرجاع الآلية التي يمكن إثارتها كما لو كانت أفعالا منعكسة بسيطة .

وإذا جعل فكرتنا عن العدل غرائزنا العدوانية مشروعة فإنها لا تتيح من التسامى ما يكفي لإلغاء كل أثر للعصاب . إنها تغري المحارب بشريعة قتل الأعداء ؛ ومع ذلك فهي لا تحرر لاشعوره من النفور الذي يحسه إذ يمارس هذا الفعل . ومن ثم فقد لاحظنا بعد الحربين الأخيرتين انتشار ضروب التعقيد العصبي التي لا تنأى من الخوف فحسب ، بل من فعل القتل نفسه . إن المحارب لا يمارس تأنيب الضمير ، ولا أي شعور بالإجرام ؛ فإن النكرة نفسها عن عدالة الحرب وشرعيتها كفيلة بالقضاء على ظاهرات الانحراف جميعاً . إنما يأتي التعقيد إلى نفس المحارب من هذا الرجوع الغريزي البدائي الضارب في البدايات ، وقد ارتبط بضروب التحريم الغامضة التي يفرضها اللاشعور الجمعي . إن من يقتل في غير ظلم يجأ في سلام مع ضميره ؛ لكنه لا يلبث أن يعاني في أغلب الأحيان بعض المتاعب النفسية التي يجهل هو نفسه عليها ، مع أنها مرتبطة بفعل القتل نفسه . ومن الحق أن الأسلحة الحديثة بما لها من قدرة على تنفيذ القتل عن بعد تستطيع أن تلغي هذه النتائج ، فالمحارب لا يشهد دائماً نتائج فعلته الدامية ، ولما كان العصاب لا يغذيه سوى الوقائع الملموسة ، فيكفي هذا المحارب أن يمتنع عن تخيل العواقب الفناكة المترتبة على وأبل قنابله . ومن الجلي أن أنواع العصاب التي تترتب على القتل تتناوب

الجند المشاة أكثر مما تنساب غيرهم ، ويكثر ظهورها لدى المقاتلين وجها لوجه ، وأولئك الذين يشهدون مجرى الدم ، ولا سيما المنوط بهم تلك المهمة المنكرة مهمة « تنظيف الخنادق » . ولا يدخل في تكوين العقدة أى عنصر أخلاقى . ولا يؤثر في عمليات اللاشعور ما إذا كان المرء على يقين من أنه ماضٍ في خدمة وطنه وأداء واجبه المقدس أم لا . ونحن نكرر هذا القول ونؤكدده ، ليس للعصاب شأن بتأنيب الضمير . وليس الاستدلال بالوسيلة الناجعة للقضاء عليه ، إنما الوسيلة هى في التماهى بالغريزة . والفرق ما بين الإعلاء والتبرير واضح جلى . فالتبرير يبق خارج حدود الغريزة ، أو بالأحرى يقوم على خطة شعورية واضحة ، فلا يستطيع القيام كجسر بين قطبي النفس . أما التماهى فإنه على الضد من ذلك ينقل الغريزة من موضعها . وفي سبيل هذه الغاية يقتصر على استخدام الوسائل التى تستطيع التأثير في اللاشعور ، وهى الرموز ، ولا يلجأ إلى آليات الإخالة أو التبسيط القائمة على أصول فكرية وتأملية . وهذا هو السبب في أن الفكرة البراجماتيقية عن العدالة تشيع الغريزة العدوانية ، لكنها لا تمنع عصاب الحرب أن يعنور النفوس .

لذلك يبدو أن من تسميهم البدائيين قد فهموا ضرورة الإعلاء خيراً مما فهمناها ، وهو ما تشهد به ظواهر الأمور في أغلب الأحيان ، بل إنهم أحسوها خيراً مما أحسنناها ، لأنهم لم يقعوا فريسة لخداع عقلى . ولأنهم عاشوا أكثر تنبهاً لمقتضيات لاشعورهم . وعلى هذا الأساس يلزمنا أن نفسر طقوس التطهير التى تجرى في معظم البلدان ، على المخاريين الذين يعودون متتصرين من إحدى الحملات ، وهم لا يرون إمكانية الحياة المسالمة الخالية من القتل الحربى إلا أن تستوجب اليقظة أو تستتبع العقاب ، وعندهم أن القتل الحربى ذو قيمة رفيعة ، وأنه دليل البطولة ، فلا ينجم عن ذلك أى صراع أو تفكير حتى ، بل يظل القتل قتلاً ، فأول الواجبات أن نحترز من أرواح الأعداء الذين قتلناهم إذ يلزمنا أن نهدي من ثأرتهم ، وهذا ما يفعله القوم في غينيا الجديدة في قبيلة البكانا Bakana ، فهم إذا ما عادوا من حملاتهم الحربية يقومون برقصة تقليدية ويرقدون النيران لمطاردة أرواح قتلاهم الأعداء . وفي قبيلة الأروناتا Arunta يجرى ذلك أيضاً . أما في جزيرة كيواى فلا يحصى المخاريون أنفسهم من الأرواح ، بل من رجس الدم المهرق ، وهذه الفكرة عن ارتباط الرجس بالقتل حتى ولو كان في

الحرب أهمية بالغة ، وفي قبيلة كاي بغينيا الجديدة يراعى بالنسبة للمحاربين الذين يعودون إلى قريتهم منتصرين ألا يقوم بينهم وبين أهلهم أى اتصال ، فيحرم عليهم أن يلمسوه بل ويلمسوا الأشياء التي يستخدمونها ، فهم غير أطهار لأنهم كانوا يقتربون القتل ، لكن هذا لا يمنعهم من أن يكونوا أبطالاً مجلدين ، فالحرب عامة لا تلغى النتائج التي تترتب على القتل ، إنما تحول القيمة الخلقية للقتل ، والطريق الذي يحدد بسكال معالمة لنتيجة أخلاقيات الحرب يتحقق بطريقة سوية للغاية ، فمن العدل ومن المستحسن أن تقتل أعداءنا ، وفيها يتعلق بما وراء الطبيعة ، أعني فيها يتعلق باللاشعور ، فلا بد من التكفل بالنتائج المترتبة على القتل ، فتمحو آثارها الخفية وتندارك ما يترتب عليها من أخطار روحية وبذلك تبقى القيود ذات الطابع اللاعقل . أضف إلى ذلك أن الرجال يعتبرون خلال مدة الحرب بطولها خارج نطاق الإطار الاجتماعي السوي . وهناك طقوس معينة ، يمكن مقارنتها بطقوس الانتقال ، لا بد منها للسماح لهم بالخروج من هذا الإطار والعودة إليه . وقد كتب فريزر Frazer يقول عن حق : « إن الهدف العام لهذه القواعد هو وضع المحارب قبل النصر وبعده ، في حالة انزواء أو فيها يشبه المغزل الروحي حيث يضع البدائي آلهته البشرية وبعض الشخصيات الخطرة ليحقق أمنه وطمأنينته » (١) وهذا الاتجاه الفريد لا يزال قائماً لدى زنوج استراليا ، المايوريس . وفي بعض القبائل الأمريكية يحرم على المحارب أن يلمس نفسه . فإذا أراد بعض الحكمة وجب عليه أن يستخدم عصا ولا يجرؤ أحد على أن يلمس الصحاف التي يأكل فيها ، وعلى هذا المحارب أن يتجنب السبل المطروقة ، حتى لا يدنسها بخطواته فيؤذي كل من يمشي بعده في هذه الطرقات ، وللخلاص من هذا الدنس المترتب على الأعمال الحربية تمارس كثير من الشعوب ضروب الاغتسال والصيام كما تتعاطى بعض مشروبات غير مقبولة ، وتستخدم بعض أنواع الدهانات ، فعند الباسوتو يعتبر الاغتسال عملاً حتمياً عقب الرجوع من ميدان القتال ، ومن جهة أخرى (وهذا عمل لا يحض عنه) يمكن صون النفس من دنس الدم المهرق بلحمه ، سواء في جراح الضحية ، أو من على السلاح الذي أطاح بها ، وعند التوجا من قبيلة البانتو ، حيث الفضائل الحربية ممجدة غاية التمجيد ، يحتم على المحاربين الذين أتيح لهم أن يقتلوا بعض الأعداء أن يمتثلوا لإجراء بعض طقوس التطهير عليهم سعيًا وراء

هدف واضح محدود ألا وهو دزج الجنون الذى يهدد كل من يريق دم الإنسان فيبقون عدة أيام مرتدين ملابس قديمة ، ولا يتناولون غير الغذاء البارد لأن دنسهم يمت بصلة للحرارة ، فمن الخير أن يتحاشوا نفاذ الحرارة إلى باطن أجسامهم ، وفي قبائل أخرى يراعى بالنسبة للمحاربين المنتصرين أن يجرى عليهم الوشم وتتلز في جراحهم العقاقير المثيرة وذلك لكي يتظهرون ويدرموا عن أنفسهم خطر الجنون الذى يهددهم ، وهكذا فإن الفكرة القائلة بأن القتل ، حتى ولو جرى في الحرب يمكن أن يثير في نفس مقتربه جنوناً يهدد بالأخطار قبيلة كلها ، فكرة واسعة الانتشار ولا سباً في جزيرة سليمان ، ولهذا السبب نفسه تعتمد بعض القبائل في أفريقيا وفي أمريكا وأستراليا أن تبقى محاربها بعض الوقت في عزلة ، يراعى في خلاصها أن يكون نومهم نفسه خارج نطاق قريتهم ، وفي قبائل البانتو يتحتم على المزعولين أن يحلقوا رؤوسهم ، وفي إحدى قبائل غينيا الجديدة لا يحق للمحاربين أن يستعيدوا صلاتهم بمواطنيهم وأن يستقبلوا كمنتصرين إلا بعد مضي ثلاثة أيام يجرى في نهايتها حماماً لتنظفهم الطقوس .

ومن اليسير علينا - وإن يكن من اللغو في الحديث - أن نكثّر من إيراد أمثلة من هذا القبيل ، فإذا نحن تأملنا الانتشار الواسع لهذه الممارسات في أنحاء الأرض من ناحية ، وما لها من طابع غريب يشع فيه التناقض من ناحية أخرى (فهي تبدو كما لو كانت ضرورياً من القصاص توقع على أولئك الأجناد لا شيء إلا لما فعلوه بالسلاح الذى أكتسبهم المجد) فسننتهى حتماً إلى أنها دليل واضح على حقيقة هامة من حقائق النفس البشرية ، قد تكون هذه التعبيرات البدائية مشوهة لها ، لكنها ولا ريب حقيقة واقعة عامة من حيث أصولها السيكولوجية ، وعلى أى حال فإن الوثائق الإثنوجرافية تقدم الحجة تلو الحجة ، على أنه في ميدان العقلية البدائية يعتبر المحارب بطلاً ، لكن فعله الجيد يجعله مدنساً ، فإذا كان القتل الذى نقره يوحى من إله الحرب أمراً طيباً من وجهة النظر الاجتماعية والخلقية ، فإنه لا يزال خطراً في نطاق ما وراء الطبيعة ، أعنى في نطاق اللاشعور لا في نطاق الفكر المتيقظ ، لذلك يبدو أن طقوس التطهير هذه ليست إلا وسائل أبدعها اللاشعور الجمعى للتسامى بالفضائل الخيرية ، وإعادة التماسق النفسى الذى توشك هذه الفضائل أن تدمره ، وأن في هذه الفكرة التى تلقى القبول لدى كثير من القبائل ، ومؤداها أن الجنون يهدد المحارب لدليلاً واضحاً على هذا الخدس السيكولوجى الذى

يكن في أعماق معظم الطقوس البدائية . ولقد يقال تعليقاً على ذلك إن هذه الشعوب تعنى بالظواهر المرضية التي تنجم عن هذا الانتقال العنيف من أخلاق السلم إلى أخلاق الحرب ، كما تعنى بضروب العصاب التي لا شك في ظهورها إذا نحن لم نتسام بالغريزة بواسطة بعض رموز ملائمة .

غير أن المذنبات الحديثة قد تبينت أنه من الأسر عليها أن تقتصر على الوقوف عند الفكرة العقلية عن العدل ، لكن هذه الفكرة جاءت مجردة ، وبالتالي كانت خالية من قيمة الرمز وظلت دون تأثير في دوافع اللاشعور ، ولا جدال في أنه لهذا السبب شاع الحديث عن اختلال الاتزان بعد الحرب لا في العلاقات الاجتماعية وحدها ، بل وفي دخیلة الأشخاص أنفسهم . ومن الحق أننا نطلق العنان لغرائزنا العدوانية عند ما نبررها ، لكي ندرأ عن أنفسنا الصراع في شعورنا الخلقى ، لكننا ننسى الصراع في اللاشعور ، وقد يمكن تخفيف وطأة هذا الصراع عن طريق طقوس التطهير ، ومع ذلك فإننا نعامل الإنسان كما لو كان كائنًا عقلياً خالصاً ، وكما لو كانت فكرة العدل لا صلة لها بالغرائز ، بدلا من أن نتفقد فيما بين الرموز ما يمكن أن يكون ملائماً لحضارتنا ، إننا نحرك غرائزنا تحت راية العدل ثم نظاهرها بأنها غير موجودة ، ومع ذلك فإن ارتضاء إراقة الدم لم يجر إلا في شعورنا الأخلاقي والعقلي ، ذلك أن فكرة العدل إن هي إلا غريزة دفاعية مقنعة في صورة معنى كلي ، وليست إعلاء هذه الغريزة ، فقد أردنا أن نقمع الشعور بالذنب ذلك الشعور الذي يكن في أعماق الطقوس التطهيرية ، ولم يبق لللاشعور إلا أن يلجأ إلى العصاب .

وإلى مثل هذه الآراء ننهي إذا نحن درسنا العنصر الثاني لسيكولوجية المحارب ، فالواقع أن الأمة المعبأة لا تقبل قتل الأعداء ببساطة وقد بينا ذلك من قبل ، وكذلك لا بد من أن يواجه أبناؤها الموت ، ولقد تبنى المقاومة للصراع متفوقة ، لذلك ينبغي أن يكون التعطش للعدل أو غريزة العدوان من القوة بحيث تشل غريزة حفظ البقاء فينا . وقد يتعذر علينا أن ندرك إمكان الحصول على هذه النتيجة لو أننا لم نسلم بأن الميل *tendance* الطبيعي إلى دره الموت يضاعفه الميل إلى مواجهته — وهنا نذكر فرويد لما أسماه غريزة الموت ، غير أن هذه الفكرة قد تصلح لتفسير الانتحار أو بالأحرى الخوف من الحياة أكثر مما تصلح لتفسير البطولة ، هذا بالإضافة إلى أنها مجال للكثير من الجدال ، والواقع أن جويو أثبت أنه أنفذ

بصيرة إذ يقرر أن الميل إلى الحياة نفسه يكفى في بعض الأحوال للتقدم نحو التضحية الخلية (١). إن الحياة ذاتها تفتضي ثمناً باهظاً ، وهي لا تنطوي على نفسها بل تمضي إلى الأمام ، وهي تتضمن الصراع وبالتالي المخاطرة في الوقت ذاته الذي تتضمن فيه حفظ البقاء ، وإن الحيوان ليخاطر بحياته من أجل الحصول على الغذاء ، أي في سبيل حفظ بقائه ، وفي مستوى أرفع من هذا المستوى يميل الإنسان بطبعه إلى توسيع وجوده وتجميله ، وفي سبيل تحقيق المثل الأعلى يواجه أعظم الأخطار ، وليس في ذلك ما هو غير طبيعي ، بل إن فيه لدليلاً على الارتقاء السوي لغريزة الحياة ، بشكل يمكن أن نشهد جميع تدرجاته ، وعلى هذا الأساس يستطيع الإنسان أن يهب حياته كلها للحظة واحدة ، كما تفعل عند ما نفضل بيتاً واحداً على القصيدة كلها على حد تعبير جويو .

وكذلك لحظ Nietzsche أن إرادة القوة تحمل الإنسان على التضحية بجزء من ذاته للاحتفاظ بجزء آخر ، وأن كل فعل حيوي يتضمن الاختيار وعلى ذلك فإنه يستتبع التفريط في بعض ذاتنا ، وهو ما يطلق عليه نيتشه عبارة «البتر الذاتي» (antotomie) . وقد انتهى المحللون النفسيون إلى نتائج مماثلة ولكن بانباغ طرق أخرى ، فهذه مذام مايرز شوازي تؤكد في مقال ألمعي عن منشأ الشعور بالذنب ، تؤكد هذه الحقيقة وهي أن الإنسان لا يستطيع أن يحقق توازنه الباطني إلا بأن يضحي بعنصر في سبيل آخر ، كأن يتنازل عن رغبة في سبيل أخرى ، وبذلك تكون هذه التضحية مرتبطة بكل أنواع الإبداع الإنساني (٢) ، على أنه إذا كانت التضحية أمراً طبيعياً فالميل إلى درتها لا يقل عنها طبيعية ، والواقع أن الحياة تتضمن غريزة المخاطرة وغريزة الأمن في وقت معاً ، وهكذا نجدنا بإزاء بعض هذه الأزواج المتناقضة التي أشار بودوان إلى أهميتها لا سيما في «علم نفس الأحماق» وكما هي الحال في الأزواج الصادي المازوخي أو في أزواج السيطرة والخضوع نجد أن أزواج المخاطرة والأمن تمتد جنودهم في المناطق الغامضة من اللاشعور ، وفي حدود الغريزة الخالصة نلاحظ أن المرمم يتقل انتقالاً مباشراً أو بغير تدرج من ميل إلى آخر مضاد على أساس هذا المبدأ الذي أطلق عليه بودوان Ch. Baudouin اسم «الكل أو اللاشيء» ،

J.M. Guyau, "Esquisse d'une Morale sans Obligation ni Sanction", 1885. (١)

Maryse Choisy, "Genèse de la Culpabilité," Psyché No 18 Avril-Mai 1948; (٢)

وهذا هو السبب في أن غريزة التراجع يمكن أن تحل فجأة محل غريزة الصراع التي تعمق بيربوفيه Pierre Boverي دراستها . ومن هذا المبدأ يمكن لمنظمي الحروب أن يتلقنوا دروساً طيبة . فإذا كان الجندي في المعركة يعمل طوعاً لغريزة بدائية دون أن يتسأى بها ، وإذا بنى في فعله الغريزي داخل نطاق اللاشعور الحيواني فإنه يستطيع أن يحارب كما لو كان سبياً ، لكنه قد يتخلى فجأة عن غضبته الحرية مستبدلاً بها خوفاً عميقاً فتسود لديه آلية الفرار . وإن الصورة الأسطورية للانكسار والتراجع كما يصفها الشعراء تبدو تجسيدا لموضوع « الكل أو اللاشيء » ، تجسيدا له في جيش لا تحركه سوى الغريزة وحدها . وبقدر ما يدع الإنسان ميوله تتصل بالعالم السفلي لللاشعور الغريزي ، يصبح نهياً لهذه الانقلابات في الفعل ، ويتنقل دون تدريج من قطب لآخر من هذه الأقطاب المزدوجة الخاصة بالدفع . ولن يتقلنا من خطر « الكل أو اللاشيء » إلا التساى ببعض الميول وذلك بجعلها ترتفع إلى مستوى أرفع من مستوى الغريزة الخالصة .

على أننا نعود مرة أخرى فنقرر أمام هذه المقتضيات النفسية ، قصور المدينيات الحديثة . ففي المجتمعات البدائية تستخدم الطقوس للتساى بغريزة المخاطرة ، وبما في هذه الطقوس من رمزية يمكن التراجع الغريزة من حالتها الحيوانية المنحطة . وكل فعل جسور يتضمن القبول لنوع من البئر (أيا كان موقع هذا البئر من النظام النفسي والخلقي) . وفي التضحية الاستعطافية ، يتخلى المرء عن جزء من ذاته لإنقاذ البقية الباقية . ويرى بودوان أن التضحية إذا ما اعتبرت نوعاً من البئر الذي نرتضيه أصبحت بمثابة مران على المخاطرة^(١) . وفي ذلك تبدو ماهية الفائدة التحليلية التي تعود علينا من الطقوس سواء في أشكالها البدائية أو في أشكالها المتطورة . على أن الانتقال من شكل إلى آخر إنما يتم بطريقة غير محسوسة . ولقد اكتسبت التضحية في دياناتنا الحديثة معنى خلقياً وروحياً خالصاً ، غير أنها ما تزال تحتفظ بصورة ملموسة هي رمزية غاية في الإنسانية ، حتى إن الميل إلى المخاطرة يمكن أن يتساى ويعبر بوساطة إبدالات متتالية ، خلال كل رمز ، من المستوى الغريزي إلى المستوى الخلقي الرفيع حيث لا يجري عليه مبدأ « الكل أو اللاشيء » . والواقع أن الإنسان البدائي بما له من طقوس غريبة وتضحيات قاسية يحقق هو الآخر جوهر هذا التساى ، لكن المجتمع الحديث يبدى نوعاً من التجاهل للضرورة الملجئة

Ch. Baudouin, "L'Âme et l'Action," (Édition du Mont-Blanc, 1944) p. 144. (١)

لذلك ، وعلى حد تعبير المحللين النفسيين أتباع مدرسة زيورخ نسي الإنسان الحديث أن له نفساً . فهو يظن أن له القدرة على الاكتفاء بالعقل الخالص ويعامل نفسه كما لو كان معادلة رياضية ، تاركاً ميوله التي أطلق لها العنان دون تسام ، مع أن الرمزية الدينية هي التي تستطيع من دون العقل الخالص البارد أن تقيم جسراً ما بين مناطق الشعور واللاشعور الجمعي . وفي هذه الحالة حيث لا توجد طقوس خاصة تظل غريزة المخاطرة تثير صاحبها ، فليس ثمة علاقة حية بينه وبين مثله الأعلى في التضحية ، ومن ثم فقد ندر أن يقوم بظل حتى (١) ، إنما يحل محله « المقحام المنهور » . ذلك أن الميل إلى المخاطرة لا يكفي لصناعة البطولة إذا ما اقتصر على الناحية الغريزية ، كل ما هنالك أنه يستتبع ازدياء للحياة يبدو في جنون السرعة بالسيارة بقدر ما يبدو في الكفاح من أجل قضية عادلة ، وهو يهبط بالقيم بدلا من الارتفاع بها ، وفي وقت السلم يعبر عن نفسه في ذلك الإحساس بالكاولة الذي يستكوره بودوان بحق والذي يهيب بنا على غير وعى منا أن نتقدم نحو حرب جديدة . وخلاصة القول أن الأمة التي اتخذت أهبتها للحرب في حاجة للإفادة من غريزة المخاطرة ، غير أنها تتناوط في حالتها المفجة دون أن تجرى عليها عملية التسامي ، وإنها لتبدي الاستخفاف بالبطولة ، وكل ما تتطلبه ألا يتردد الفرد أبداً في التضحية بحياته . ولكن حتم عليها أن تقاس إذاً من نقص في التربية ، لأن الخوف أولاً وقبل كل شيء قريب كل القرابة من النزعات العدوانية العمياء ، ثم لأن ضروب العصاب ها هنا تحيل عالم ما بعد الحرب إلى عالم قد احتل توازنه . إنما ينبغي للإنسان أن يعرف كيف يستغل قوى الغريزة لديه ، ولكن على أن يرتفع بها إلى مستوى المثل الأعلى لا على أن يفصم ما بينه وبين لاشعوره .

لهذه الاعتبارات مجتمعة يتبين بجملاء أن الآثار السيكلولوجية للحرب تتوقف بلا ريب على ما يديه الحارب من سلوك ، ويجب أن نبعد عن أذهاننا الفكرة القائلة بأن الحرب من شأنها تنقية الجنس فلا يبنى بعد هدوء العاصفة إلا النخبة الممتازة . فإن هذا الرأي المترتب على اتجاه دارون ومذهبه في الصراع من أجل البقاء إنما يعتمد على نظرية تطورية ما يزال الجدال يستخدم من حولها ، ثم إنه

(١) بمجرد بالذكر ما هنا أن كودول Ch. Caudwell قد لحظ الظاهرة نفسها ، وذلك في كتابه الموسوم "Studies in a Dying Culture" ؛ لكنه يقدم لها تعليلاً آخر . انظر مقالته عن لورنس T.E. Lawrence . (الترجمة)

يتعذر علينا أن نرى كيف يمكن للحروب الحديثة أن تضمن البقاء للأصلح في الوقت الذي تضرب فيه الجيوش الحديثة في عماء وفي الوقت الذي يتخلف فيه الضعفاء ليبقوا آمنين في المكاتب . ولقد انتهى نيتشه الذي بدأ بأن أغرته هذه النظرية رغم وضوح خطئها ، أقول انتهى إلى التخلي عنها مفضلاً انتقاء وسائل أخرى لضمان الانتخاب يغلب عليها الطابع السلمى^(١) .

ومن الحق أن الحرب تحي بعض الفضائل وتدفع إلى ضروب من البطولة العظمى . فهي تعلم الإنسان ألا ييخس حياته قيمتها ، وتطلعه على حقيقة وجوده في ضوء غاية في الواقعية ، وبذا تثير بصيرته . ولكن أيستتبع هذا التقدير الخاص بالضرورة بحثاً عن القيم العليا وإبداعاً لها ؟ الواقع أنه يؤدي إلى كل ضروب المبالغة . وبالتالي يمكن أن يدفع إلى الازدهار بعض القيم الخلقية كما يمكن أن يخنقها . وكان نيتشه يرى في « الحروب الحقيقية التي لا محل فيها لأية مزحة » علاجاً ناجعاً لكل اتجاه عذمى^(٢) ، وفاته أن الصراع لا يستتبع حتماً لهذه الصراع ، بل قد يستتبع التراخي ، والاستخفاف وازدراء كل القيم . ويلاحظ من الناحية الاجتماعية أن الحروب الكبرى يتبعها انتشار إدمان الشراب ، وانتشار الطلاق والانتحار والإجرام والموجات اللاأخلاقية بوجه عام .

أما الحماس الحربي الذي أغرى به جماعة من أصحاب النظريات ، فهو من فعل الجماهير . وهو بذلك يرتبط بسيكولوجية الجماعات حيث كشف جوستاف ليبون عن سلطان اللاشعور ، حيث الاستعداد لأن يترك الإنسان نفسه تقوده بضع عواطف . ومن ثم فقد أمكن لهذا الحماس أن يخدم كل قضية أبا كانت . ومن المحقق أنه بصبغ عظيم الفائدة إذا ما اتجه إلى خدمة الأمة ؛ لكنه معرض على الدوام للضلال . وفي ذلك يقول ليبون Le Bon إن الجماعة يمكن أن يكون لها من البطولة ما يماثل بطولة المحرم^(٣) . ولذلك يلزمنا ألا نصف الحرب بالصالح أو بالسوء . فهي من الناحية السيكلوجية شبيهة بإطار فارغ . والمهم في المضمون الذي يمكن أن يضعه الشعور في هذا الإطار .

غير أن المدنية الحاضرة ، وقد جعلت الحرب ذات طابع آلى وعقل ، زادت

Nietzsche: "La Volonté de Puissance," (traduction Bianquis, Edition Gallimard,) Livre IV, chapitre 2. (١)

Nietzsche: Ibidem, Livre III, chapitre I. (٢)

G. Le Bon: "Psychologie des Foules", (Alcan, 1896), p. 21 (٣)

في خطورتها بالنسبة للنفس البشرية عما كانت عليه في أى وقت مضى . والظاهر أن القوم قد اضطروا إلى العيب في ذات العدل السلمي لكي يقيموا على أنقاضه العدل الحربي . أما البدائيون فقد كانوا أكثر حكمة ولباقة ، إذ جروا على التفرقة بينهما ، فاعتادوا أن يتقدموا إلى تكريم المنتصرين ، واعتادوا أن يعزلوهم لحين إنعام طقوس التطهير بالنسبة لهم . وما كانت الفكرة القائلة بدنس الحرب لتلغى أبداً طقوس البطولة أو تغض من شأن الفضائل الحربية . بل على الضد من ذلك ، يظهر أن الحرب تزيد من صفاء الشجاعة العسكرية في الوقت الذي تخلع فيه الطقوس عن المحارب دنسه المتعلق باللاشعور . إن إعطاء ما لقيصر لقيصر والاعتراف بما في ذلك من دنس في وقت معاً ، يتيح لنا أن نترك للبطولة مركزاً بين بين . فهل يجوز لنا أن ندهش إذا ما رأينا بعد الحرب الأخيرة قوماً مُجندوا لسلوكهم الحربي يسلكون كأسوأ ما يكون المواطنون ؟ وهلا نستطيع إيجاد نوع من الاتفاق بين هذين الجانبين من جوانب القيم العسكرية ، أغنى دنس الفعل ذاته وعظمة الأبطال ؟ ربما يكفي لذلك أن نقرر أن فكرة العدالة التي ندعمها بغريزة العدوان يجب ألا تخلو من بعض الشعور بالذنب ، وأن هذا الشعور لا يمكن أن يجد ما يرضيه ويهدئ تأثيره إلا في النطاق الرمزي . فإن الاقتصاد على إبعاد هذا الشعور فحسب يتضمن أخطاراً جساماً تعبر عن نفسها في أشكال العصاب المختلفة .

أما عن البطولة القائمة على الشعور بالمخاطرة فبالإمكان أن تنحل إلى احتقار للقيم الحياة وطمأً جنوني للحرب ، كلما حل سلام أعد للحرب عندها من جديد . ولقد تكون الحرب أمراً لا مفر منه ، وإذا اندلع لحبها يجب تقبل كل ما يترتب عليها من ضرورات وإيجابيات . والمغالاة في قيمة الفضائل الحربية من بين الواجبات التي تنوء بها كواهل القادة المسؤولين : وعلى المرء أن يقبل القتل والموت في سبيل الدود عن وطنه وشرفه وممتلكاته . لكن هذا القبول ينبغي له ألا يمس توازنه النفسي العميق ، يجب ألا يترك الإنسان ممزقاً بين غرائزه المثارة وتفكيره العقلي المجرد . يجب أن يضمن له التناسق الباطني عن طريق التسامي الذي يجري على نزعاته ، وإنما يتحقق ذلك بوساطة رموز خاصة . وليس في الإمكان تحقيق البطولة الحقة إلا إذا انطوت نفوسنا على هذا الشعور بالذنب الذي من شأنه أن يجعلنا نقبل الحياة الإنسانية في ظل الإنكار للذات ذى الطابع الديني ، وانطوت كذلك على

معاني التضحية التي تجعلنا نتخلى عن حياتنا دون أن نحمل لها احتقاراً . ولقد نجد في الصلوات والتضحية الدينية رموزاً تلائم العقلية الحديثة ، ولقد نجد رموزاً أخرى . ومن المحقق أننا حتى إذا اقتصرنا في نظرتنا إلى المجتمع على اعتبار أهليته العسكرية ، فالملاحظة التي نيدها أنه لا يفيد من أية نزعة وحشية أكثر مما يفيد من غريزة جرى عليها الناس . ومن ثم فقد وجب علينا ألا نوظف في نفوسنا نداء المحاربين الجرمانيين « الله معنا Gott mit uns » بل على الضد من ذلك ، ينبغي لنا أن نوظف الشعور بدنس الحرب في اعتبار الله ، أو في اعتبار اللاشعور ، وتلك عاطفة ملائمة كل الملائمة للتقبل الواعي للواجبات العسكرية . وبذلك نستطيع أن نندأ عن أنفسنا خطر انقلاب النزعات الذي يجلب الرعب والاندحار ، كما نندأ الاستخفاف بالقيم الأخلاقية الذي يسود بعد الحروب ، وبالتالي نجعل البطولة الحربية أشد نفعاً وأبهى مظهراً .

جان فازنوف

أحلام أسرى الحرب

من مجلة "KWARTALNIK PSYCHOLOGICZNY" البولندية

بقلم لودفيك بانمورا Ludwik Bandura

كاتب هذا المقال أحد الباحثين البولنديين الذين أسره الألمان في الحرب العالمية الأخيرة ، فانتبه فرصة الأسر واستطاع أن يقدم لنا هذا البحث السيكولوجي الأصيل . وقد تناول فيه بالدرس ١٣٥٩ حلماً ما بين أحلامه وأحلام زملائه الأسرى . فوجد ٤٠٢ ٪ منها تصدر عن بعض المنبهات ، ويندرج ضمن هذه النسبة أيضاً الأحلام التي تثير الشعور بالحجل إزاء بعض الأجزاء من ملابسنا الداخلية ، أو بعض الأعضاء العارية كالسيقان مثلاً .

وقد لاحظ الكاتب أن أحلام الأسرى لا تخلو من آثار الأحاسيس والعواطف على اختلاف أنواعها ودرجاتها . كما لاحظ أن العناصر التي يتألف منها الحلم لا تأتي مترابطة فيما بينها ترابطاً منطقياً ، بل ترابطاً سطحيّاً . وهي تكشف عن نوع من الفرار أو الزوغان للأفكار . وتتألف بعض الأحلام من طبقتين : إحداهما يغلب عليها طابع القصص والأخرى هي مبدأ هذا القصص وجوهره ، وهو شبيه بما